السيميولـــوجـــيا والســـرد الأدبـــي

د . صـــالـــح مـــفـــقـــوده
جامعة محمد خيضر بسكرة.

Sémiotique أو Sémiologie لفظة مشـــتقة مـــن الأصـــل اليونـــاني Sémeion أي العلامة فالسيميوطيقا علم العلامات، وقد أطلق العـــالم النمســـاوي فرديناند دوسوسير 1857ـــ1913م لفظ السيميولوجيا، في حين أطلق الفيلســـوف الأمريكي تشارلز ساندرز بيرس 1838ـــ1914م لفظ السيميوطيقا. وقـــد عـــرف المصطلحان انتشارا متبادلا في الثقافة الأوربية والأنجلوساكسونية حتى أن الجمعية الدولية التي تأسست في فرنسا سنة 1974 اختارت لها اسم سيميوطيقا ولم تخـــتر اسم سيميولوجيا، وإذن فإن المصطلحين متشابهان. لكن قريماس حاول أن يفـــرق بين المصطلحين في اللغة الفرنسية، فجعل مصطلح السيميوطيقا يشير إلى دراســـة أنظمة العلامات كنظام اللغة والصور والألوان، أما الســـيميولوجيا فـــهي الـــهيكل النظري لعلم العلامات بصفة عامة، ودون تخصيص لهذا النظام أو ذاك. وإلى مثل ذلك يذهب هيلمسليف H.jelmeslev الذي أبقى على مصطلح سوســـير، ولكنـــه خصصه بتعريف محدد وهو "الميتاسيميوطيقا" أي اللغة العلمية الواصفة لمختلـــف الأنظمة السيميائية.[1]

وقد انتشر علم العلامات أو السيميوطيقا في الستينات من هـــذا القـــرن إذ تكونت عدة مراكز للبحث في عدة دول مثل فرنسا، كنـــدا، الاتحـــاد الســـوفييتي، إيطاليا.

ولقد تأسست سنة 1969 "الجمعية العالمية للسميوطيقا" بباريس، وأصـــدرت هذه الجمعية مجلة فصلية بعنوان "سيميوطيقا". ومن الأعضاء النشطين فـــي هـــذه المجلة: يوري لوتمان، امبرتو ايكو، جوليا كريستيفا [2].

كما انعقد بميلانو في إيطاليا سنة1973 أول مؤتمر عـــالمي للســـيميوطيقا، وأثار هذا المؤتمر أهم مفاهيم السيميولوجيا النظرية والإجرائية. وقد أثيرت خـــلال هذا الملتقى جملة من التساؤلات حول هذا العلم وأهميته، ومدى تجانس الأعمـــال المندرجة تحته، وتم طرح قضية الوعي المعرفي الذي يستند إليه هذا العلم الجديد. فما حقيقة هذا العلم وما هي مبررات وجوده، هل هو مجرد مودة ستزول؟ أم أنـــه علم ذو قواعد ثابتة، وأصول قديمة ؟[3]

الحقيقة أن العلامة ليست جديدة في التراث بل هي قديمة قـــدم الإنســـانية. وفي التراث العربي كما في التراث الغربي إشارات كثيرة إلى العلامة؛ فمنذ القديم نجد أرسطو في كتابه العبارة يحدد العلاقة بين الألفاظ والعلامات وبين أشياء العالم الخارجي إذ يقول:

«إن الأصوات التي يخرجها الإنسان رموز لحـــالات نفســـية، والألفـــاظ المكتوبة هي رموز للألفاظ التي ينتجها الصوت. وكما أن الكتابة ليست واحدة عند البشر أجمعين، فكذلك الألفاظ ليست واحدة هي الأخرى، ولكن حالات النفس التـــي تعبر عنها هذه العلامات المباشرة متطابقة عند الجميع»[4]

ومن خلال هذا القول لأرسطو نجـــد أن الألفـــاظ المكتوبـــة والأصـــوات المنطوقة ما هي إلا تعبير عن الحالات النفسية للبشر. وإذا كانت الحالات النفســـية متشابهة فإن العلامات مختلفة من أمة لأخرى، وهذه الفكرة لها ما يقابلها تماما في قضية اللفظ والمعنى التي طرحها الجاحظ فيما بعد في الفكر العربي.[5]

وقد أشار الرواقيون أيضا في العهد اليوناني إلى أن العلامات تتكون مـن: المشار إليه، التصور الذهني، اللفظ.

تشير فريال حبوري غزول إلى أن الجزائري القديس أوغسطين 430/350 قد قدم تعريفات للعلامة ضمن أبحاثه في التأويل، معتمدا على الفلاسفة من قبلـه مثل الرواسين وأرسطو.[6]

العلامة إذن كلفظة موجودة منذ القديم وهناك إشارات لها في علوم اللغـة والأدب والفلسفة أما علم العلامات فهو حديث الظهور، وكان دوسوسير قد نبه إلى هذا العلم وبين أهميته حين قال: «يمكن أن نؤسس علما يدرس حيـاة العلامـات داخل الحياة الاجتماعية، فيشكل هذا العلم جزءا من علم النفس الاجتماعي وبالتالي جزءا مـن علـم النفـس العـام، وسـنطلق عليـه اسـم علـم العلامـات أو السيميولوجيا..وسّيمكننا علم العلامات من معرفة ماهيـة العلامـات والقوانيـن المسيرة لها..ولا يعدو علم اللغة أن يكون قسما من هذا العلم العام»[7]

يتضح من خلال هذا القول أن دوسوسير تنبأ بالسيميولوجيا ووضح الـهدف من هذا العلم، وهو دراسة حياة العلامات واعتبر هذا العلم جزءا من علم النفـس الاجتماعي، وبالتالي جزءا من علم النفس العام، وقد عد دوسوسير علم اللغة جزءا أو قسما من هذا العلم العام. ولكن الفرنسي رولاند بارت قلب هذا التصور فيمـا بعد حيث اعتبر السيميولوجيا جزءا من علم اللغة...[8]

السيميوطيقا علم حديث إذن هدفه فهم الإنسان وموقفه مـن هـذا الكـون، وللوصول إلى ذلك تسعى السيميوطيقا كرؤية إلى التوحيد بيـن حقـول مختلفـة، محاربة تفتت العلوم وانشطارها القائم بين التصنيـف المبنـي علـى الملاحظـة الأمبريقية من جهة، وبين التنظير المبني على الملاحظة الذهنية من جهة أخرى.

السيميوطيقا أو علم العلامات يؤمن بأهمية العلامة في حياة الإنسان فالعلامة هي التي تقودنا وتوجه حياتنا، ورغم اختلاف النشاطات إلا أنها في نهاية المطاف عبارة عن علامات ..ومن هنا يمكن معالجتها معا.

كانت هذه المهمة موكولة من قبل للفلسفة التي كانت تحاول فهم الوجود، والوصول إلى كنه الأشياء من خلال طرح الأسئلة. أما السيميوطيقا فهي البديل عن الفلسفة اليوم، أوهي فلسفة أخرى تدرس العلامات لتحدد العلاقة بين الأنساق، إنها لا تطمح إلى العثور على مفتاح الوجود كما تفعل الفلسفة، بل تهدف إلى رسم خارطة للوجود، وتوحيد ما يبدو للوهلة الأولى متناقضا.(9)

والسيميوطيقا في جانب أدبي تدرس وتحلل عناصر ومكونات النص، وتحاول استخلاص العلاقات الرابطة بين تلك العناصر، أي معرفة النظام الكامن وراء النص، وهي لا تدرس النص بمعزل عن غيره من الأنظمة السيميوطيقية الأخرى، بل تضع العمل الأدبي في سياقه المعرفي العام (الثقافة). وبفضل هذه الرؤية السيميوطيقية في مجال العلوم الإنسانية ستبتعد دراسات الأدب عن الأحكام الانطباعية، مقتربة من العلم بمعناه الدقيق، من نزوع نحو التجريد الذي يمكننا من تصنيف المادة المدروسة، ووصفها من خلال أنساق من العلاقات تكشف عن الأبنية العميقة التي تنطوي عليها، وقد نتمكن من خلال هذا التجريد أن نستخلص القوانين التي تحكم هذه المادة.

جهود العلماء في مجال العلامات:

يمكننا أن نتحدث عن جهود العلماء في هذا المجال، وهي تنصب عامة في اتجاهين:

- المستوى الأنطلوجي، ويعنى بماهية العلامة أي بوجودها وطبيعتها وعلاقاتها بموجودات تشبهها أو تختلف عنها.

– المستوى البرجماتي، ويعنى بفاعلية العلامة وبتوظيفها في الحياة العملية، وقد برز في هذا الاتجاه الأمريكي تشارلز بيرس في حين برز في الاتجـاه الأول فرديناند دوسوسير.

فرديناند دوسوسير، العلامة الدال والمدلول.

يرى فرديناند دوسوسير أن اللغة نظام من العلامات التي تعبر عن أفكـار فهي مماثلة للكتابة ومماثلة لأبجدية الصم البكـم والطقـوس والأشـكال وصيـغ الاحترام والشارات العسكرية. فكل هذه الأمور ما هي إلا علامـات تعـبر عـن أفكار..غير أن اللغة أهم هذه الأنظمة على الإطلاق...

واللغة إذا جردت إلى عناصرها الأساسية هي عملية تسمية، أي قائمة على الألفاظ التي تناسب عددا من الأشياء، فهناك ربط بين الشـيء واللفـظ أو الاسـم والمسمى، والوحدة اللغوية تقرن المفهوم بالصورة السمعية، والصـورة السـمعية ليست الصوت المسموع أي الجانب المادي البحت منه، ولكن هو الأثـر النفسـي الذي يتركه الصوت فينا، أو بعبارة أخرى التصور الـذي تنقلـه لنـا الحـواس. الصورة السمعية صورة حسية في مقابل المفهوم، وهو عادة من طبيعة مجـردة. المفهوم/المفاهيم هي أحداث الوعي الموجود في الدماغ، حيث يرسـلها لأعضـاء التصويت، وتنتشر الموجات من فم المتكلم إلى أذن المتلقي وتمتد الدائرة بـترتيب عكسي، وفي الدماغ يحدث الترابط النفسي بين الصورة السمعية والمفهوم المطابق لها.

لدينا إذن المفهوم ويسميه سوسير المدلول، ولدينا الصورة السمعية ويسميها سوسير الدال، ولدينا العلامة التي تجمع بين الاثنين.

الدال إذن ذو طبيعة حسية أو هو الصورة السمعية، والمدلول هو المفـهوم أو التصور الذهني، ويبقى المرجع أو المشار إليه وهذا يهمله دوسوسير إطلاقـا.

ويجاريه في ذلك أمبرتوايكو الذي يرى أن فكرة المشار إليه تخرج عـــن نطـــاق السيميولوجيا فـــإذا قلت لأحد أن داره تحترق، فسيكون رد فعله أن ينطلق مهرولا للتأكد من صحة القول، فايكو يرى أن هذا لا يهم السيميوطيقا، فالسيميوطيقا تبحث في الشروط اللازمة لكي يفهم الشخص الذي تنقل إليه الرسالة قولك أي الشـــفرة التي تجمع بين المتكلمين.

والحقيقة أن فكرة إهمال المشار إليه فكرة صعبة الاستيعاب، فضـــلا عـــن الغموض الذي يكتنه فكرة الدال والمدلول التي أشار إليها سوسير، ومن هنا وجـــد من أكد على فكرة المشار إليه وعدم إهمالها، ومن هؤلاء أوجدين وريتشاردز فـــي كتابه "معنى المعنى".

لقد اختصر العلاقة الرابطة بين الأشياء والأفكار في شكل مثلث (10)

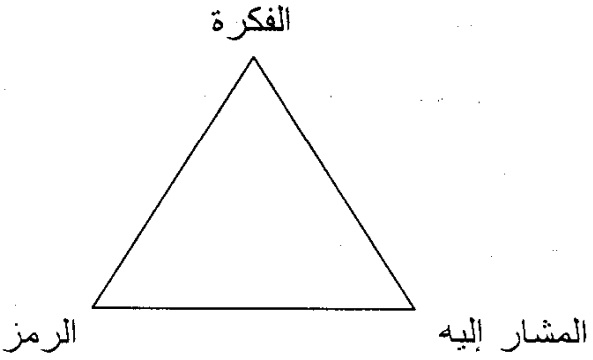

فالرمز يقابل الدال عند سوسير، والفكرة تقابل المدلول، أما المشار إليه فلا وجود له عند سوسير.

ولعل الذي وسع من فاعلية السيميوطيقا وأعطاها تحديدا أكثر عمومية هـــو تشارلز ساندرز بيرس الذي يرى أن العلامة أو المصورة شيء ما ينوب لشـــخص ما عن شيء ما من وجهة ما وبصفة ما، أي أنها تخلق في عقل ذلـــك الشـــخص علامة معادلة، أو ربما علامة أكثر تطورا. وهذه العلامة التي تخلقـــها؛ يســـميها تشارلز مفسرة فهي مفسرة للعلامة الأولى، أي أن العلامة تنوب عن شيء ما وهذا

الشيء هو موضوعها، وهي لا تنوب عن هذا الموضوع من كل الوجـــهات بـــل بالرجوع إلى نوع الفكرة (ركيزة)[11].

لدينا إذن:

- المصورة: وهي الحامل المادي للعلامة وتقابل الدال عند سوسير.
- المفسرة: علامة جديدة تنجم عن الأثر الذي يتركـــه موضـــوع العلامـــة الأولى في ذهن المتلقي. وللمفسرة أشكال فقد تكون مصورة من نظام ســيميوطيقي آخر غير الذي تنتمي إليه العلامة الأصلية، فقد تترجم كلمة كلـــب إلـــى صـــورة فوتوغرافية، وقد تكون المفسرة تعريفا علميا يصاغ في نفس النظام الســيميوطيقي، كقولنا: أن الماء يتكون من أوكسجين وهيدروجين.

وقد تكون المفسرة معنى من المعاني الإيحائية الحاملة لبعـــض الـــدلالات العاطفية اللصيقة بالعلامة الأولى، كترجمة كلمة كلب إلى وفاء.

وقد تكون المفسرة ترجمة من لغة إلى أخرى مثل ترجمة كلمة كلب إلـــى Chien

وقد تكون المفسرة سلوكا تثيره العلامة عند المتلقي.

الموضوع: وهو المشار إليه.

وأهم التقسيمات التي أوردها بيرس للعلامة هي:[12]

العلامة الأيقونية[13]، وتكون فيها العلامة بين المصورة(الدال) والموضـــوع المشار إليه علاقة تشابه، وهذا مثل الصورة الفوتوغرافية التي تشير إلى صاحبـــها وتمثله.

المؤشر، والعلاقة هنا سببية Index من السببة، ويدخل في ذلك أســـماء الإشارة وأسماء المكان: هنا-هناك وكذا ارتباط الدخان بالنار.

العلامة الرمزية: والعلاقة هنا عرفية وهذا كارتباط الحمامة بالسلام.

وبفضل هذا التقسيم يمكن الكشف عن علاقة الواقع الخـــارجي بالتجليـــات الفنية والأدبية للعلامات.

ويؤكد أمبرتو ايكو أنه لا ينبغي الاعتماد على مجرد التشابه بـــل ينبغـــي الأخذ في الحسبان قضية العرف والثقافة، وإلى مثل ذلك يذهب يوري لوتمـــلن [14] أيضا فهو يرى أن التعرف إلى العلامة أيا كانت يتطلب شفرة مشتركة بين أفـــراد الجماعة التي تستخدم هذه العلامات، وإلى مثل ذلك يذهب كثيرمن النقاد والباحثين في مدرسة موسكو تارتو إذ يرون أن النظام السيميائي للعلامات يقوم أساسا علـــى نوعين من العلامات: العلامات الصرفية (الكلمة) والعلامات الأيقونية (الصورة).

وينبه لوتمان إلى مسالة تتعلق بفاعلية العلامات في الفن، ويربـــط بشـــكل خاص بين هذه المسالة وإنتاج الدلالة، إذ يرى أن الفن لا يقوم فقط بإعادة عـــرض الواقع بآلية مرآة عادية لا حياة فيها. إنه بتحويله صور العالم إلى علامات يمـــلأ هذا العالم بالدلالات، ومن ثم فان غاية الفن ليست فقط عرض الموضوع بطريقـــة بسيطة؛ بل هدف الفن جعل هذا الموضوع حاملا للدلالة[15].

لقد أحدثت السيميوطيقا ثورة في دراسة الفن القصصي، بل وخلقت علمـــا أدبيا برمته هو الناراتولوجي علم القص، ومن أبرز أعلامه الليتوانـــي قريمـــاس والبلغاري تودوروف والفرنسي جيرار جينيت ومواطنه رولاند بارت.

ويمكن الإشارة هنا إلى العمل الذي قام به جينيت في التفريق بين الســـرد الذي يعني به الترتيب الفعلي للأحداث، وبين الحكاية التي تعني تتابع الأحداث كما وقعت في عالم الواقع أو كما يفترض أنها وقعت. ويشير جينيت إلـــى المقـــولات الأساسية التالية وهي: [16]

1. النظام الزمني: في الرواية أو القصة لا يتطابق بالضرورة زمن السرد مع زمن القصة، وعندما لا يتطابق الزمنان نسمي ذلك بالمفارقة السردية أو الزمنية.

2. المفارقة الزمنية: هي الخلخلة التي تحدث في الزمن استباقا أو استرجاعا.

الاستشراف: هو استشراف أحداث لم تقع بعد كتوقع البطل خالد في رواية ذاكرة الجسد لأحلام مستغانمي قدوم الفتاة أحلام إليه. لقد ظل يحلم بمجيئها بين الجمعة والاثنين، يعدها أربعا ثم يحذف اليومين المذكورين ليصيرا يومين، وفي الوقت المحدد لحضورها يأتي عمها ويالها من خيبة انتظار، لكنها تأتي في وقت لاحق.

الاسترجاع، وهو الرجوع إلى الماضي.

3. المدة أو الاستغراق الزمني: يقترح جينيت دراسة المدة الزمنية من خلال التقنيات الحكائية التالية:

الخلاصة: وهي تلخيص لأحداث في الرواية.

الاستراحة: وهي عكس الخلاصة.

القطع أو الحذف بعدم ذكر أحداث كأن يقول الراوي مثلا...وبعد خمس سنوات وقع كذا.

المشهد: ويتساوى فيه زمن السرد مع الزمن الطبيعي. والعملية في كل ذلك تقريبية.

4. التواتر: ويتناول مسائل ما إذا كانت حادثة ما قد حدثت مرة واحدة في القصة وحكيت مرة واحدة، أو حدثت مرة واحدة لكنها حكيت عدة مرات أو حدثت عدة مرات وحكيت عدة مرات، أو حدثت عدة مرات وحكيت مرة واحدة فقط.

وفي هذا الإطار يمكن الحديث عن كثير من التقنيات السردية التي ربمـــا لا يسمح الوقت بالحديث عنها في هذه العجالة.

الإحـــــالات

[1] محمد إقبال عروي: "السيميائيات وتحليلها لظاهرة الترادف في اللغة والتفسير "مجلة عالم الفكر .مج 24 ع 3 ينـــاير ــ مارس 1996.ص192.

2 أمينة رشيد "السيميوطيقا في الوعي المعرفي المعاصر "من كتاب مدخل إلى السيميوطيقا، إشراف سيزا قاســم، دار إلياس العصرية، القاهرة. ص47.

3 أمينة رشيد "السيميوطيقا في الوعي المعرفي المعاصر "من كتاب مدخل إلى السيميوطيقا، إشراف سيزا قاســم، دار إلياس العصرية، القاهرة. ص47.

4 المرجع السابق ص 49.

5 إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، دار الثقافة، بيروت ط5 1986.

6 فريال غزول: "علم العلامات السيميوطيقا مدخل استهلالي ــ من كتاب مدخل إلى السيميوطيقا السابق .ص15.

7 دي سوسير: علم اللغة العام، تر بوئيل يوسف عزيز، دار آفاق عربية، بغداد1985. ص87.

8 فاضل ثامر: اللغة الثانية ــ في إشكاليات المنهج والنظرية والمصطلح في الخطاب النقدي المركز الثقافي العربـــي. بيروت 1994. ص08. نقلا عن .Encyclopedic Dictionnary of the science of langage .p91

9 فريال غزول: المرجع السابق .ص14.

10 سيزا قاسم "اليميوطيقا حول بعض المفاهيم والأبعاد "من كتاب مدخل إلى السيميوطيقا. السابق. ص23.

11 المرجع السابق ص 26.

12 المرجع السابق ص 31 ــ 34.

13 كلمة أيقونة (Icone) باللغة اليونانية تعني الصورة، ويميز بيرس بين ثلاثة أنواع من الأيقونـــات: الصـــورة ــ الرسم البياني التوضيحي ــ الاستعارة.

إن العلامة الأيقونية معللة بدرجة كبيرة أي أنها تفهم فوريا وشموليا، لأنها علامة طبيعية وليست اعتباطية، وبـــالرغم من أن النص الأدبي يتشكل أساسا من العلامات اللسانية الاعتباطية غير المعللة إلا أن هذه العلامات تتشكل عبر مســـتوى النص على مستوى معلل بسبب درجة التماثل بين العلامة والواقع الخارجي كما هو الحال في وصف المشاهد والأمكنة.

14 يوري لوتمان: ناقد روسي كان أستاذا بجامعة تارتو بأستونيا من أهم مؤلفاته: بناء العمل الفني بناء العمل الشعري ــ سيميوطيقا السينما والتي سماها بالأبكم العظيم.

15 ينظر مقال سيميوطيقا السينما بقلم يوري لوتمان تر نصر أبوزيد. من كتاب مدخل إلـــى الســـيميوطيقا. الســـابق ص265 ــ 281.

16 خوسيه ماريا بوثويلو إيفانكوس: نظرية اللغة الأدبية، تر حامد أبو أحمد مكتبة غريب، الفجالة القاهرة. ص286ــ 287.